الوحدة العربية ووحدة اللغة

للأستاذ يوسف كمال حتاتة

استمر حكم العرب فى الأندلس ثمانية قرون من عام الفتح (سنة ٩١ هـ) إلى العام الذى سقطت فيه غرناطة سنة ٨٩٧ هـ)

وكانت فى الأندلس سبعمائة مكتبة عامة يرتادها الناس لدراسة أنواع العلوم وبينها مكتبة قرطبة التى كانت تحوى نصف مليون كتاب

فلما دالت الأيام وأخرج العرب من ديارهم أحرق أعداؤهم الكتب التى ألفوها وبقيت البلاد ترسف فى قيود الجهل وأصبحت كلمة كتاب إحدى الجرائم التى ينبغى الحذر منها ، وظلت مدريد — عاصمة الحكم الذى خلف حكم العرب — لا تضم مكتبة عامة واحدة إلى القرن الثامن عشر الميلادى

فى هذه الفترة كان المتحدث عن نظريات نيوتن وابن رشد يساق إلى محكمة التفتيش فتحكم عليه بالموت بعد التعذيب ، والتعذيب هو قطع الأرجل والأذرع فى شريعة القساوسة ؛ أما الموت فهو إلقاء المحكوم عليهم فى التنانير المسجورة

فى زمن عبدالرحمن الناصر لدين الله كان المبشرون يقفون أمام جامع قرطبة الكبير ويخطبون داعين الناس إلى اعتناق الدين المسيحى فى أثناء اجتماع المسلمين لصلاة الجمعة ، وكان الخليفة يسمعهم فلا يقول لهم كلمة ولا يأمر رجال شرطته باعتراضهم أو الوقوف فى طريقهم

هذا فى الأندلس ؛ أما فى بغداد فقد وضع الرشيد جميع المدارس فى مملكته تحت رقابة يوحنا بن ماسويه الشهير ، وكان الإشراف على أمور التعليم فى الدولة العباسية يفوض تارة إلى النسطوريين وطوراً إلى اليهود

وكان جيورجيس الجنديسابورى طبيباً للمنصور ، وقد علت منزلته عنده ، وسبب ذلك أنه كانت له زوجة عجوز لا تشتهى فأشفق عليه المنصور وأرسل إليه ثلاث جوار حسان فردهن وقال : « إن دينى لا يسمح لى أن أتزوج غير زوجتى ما دامت حية » فأعلى المنصور مكانته وقدمه حتى على وزرائه . ولما مرض أمر المنصور بنقله إلى دار العامة وخرج إليه ماشياً يسأل عن صحته فاستأذنه الطبيب فى الرجوع إلى بلده ليدفن مع آبائه فعرض عليه الإسلام ليدخل الجنة فقال له :

رضيت أن أكون مع آبائى فى الجنة أو فى النار

فهش له المنصور وبش وأمر بتجهيزه ووصله بعشرة آلاف دينار ، وهو المنصور المشهور بالإمساك وكزازة اليد

على أن هلاكوخان الوثنى قد أمر بإلقاء الكتب العربية فى نهر دجلة ، فقضى على مدنية بنى العباس بعد تقويض عرش خلافتهم التى استمرت من سنة ١٣٢ هـ إلى سنة ٦٥٦ هـ

فأنت ترى أن هلاكوخان التترى الوثنى لم يعمد لتقويض بنيان الدين الإسلامى ، ولكنه أراد القضاء على لغة العرب ومدنيتهم فى العراق ، وحذا حذوه قساوسة الأسبان فى الأندلس الشهيدة ، لأن الأمة تحيا وتموت بحياة لغتها وموتها . أما كتاب الله وسنة نبيه ، فإن هلاكو خان التترى الوثنى وقساوسة الأسبان الذين هدوا هديه فى الأندلس كانوا يعلمون أن المصاحف وكتب الحديث قد انتشرت فى جميع المشارق والمغارب فى بلاد فارس وفى الهند وبلاد الجزيرة العربية وجاوة وبخارى وما إليها .

عندما ضمت ولاية الألزاس إلى ألمانيا بعد حرب السبعين الأخيرة ، قام أحد المدرسين الفرنسيين فى تلك المنطقة الشهيدة إذ ذاك بين تلاميذه وقال لهم : إن درسى هذا هو آخر الدروس التى ألقيها عليكم . فإذا أردتم أن تحتفظوا بفرنسا فى قلوبكم ، فلا تفرطوا فى لغتها

والوحدة العربية التى استشهد الحسين بن على رافع علمها فى سبيل الذود عنها وأضاع ماله وتاجه ، هذه الوحدة التى يسعى لها العرب وعلى رأسهم صاحب السمو الأمير عبدالإله حفيد الحسين ، لا يقدر العرب على الوصول إليها — على الرغم من الجهود المبعثرة التى يبذلها أصحاب الزعامات الزائفة الذين يشبهون الذباب اللوث فى الإناء الظاهر — إلا إذا وحدنا لغة الجرائد والمجلات ، ليفهم ابن العراق وابن اليمن والحجاز ونجد وفلسطين ودمشق ما يكتبه ابن مصر

لو عرف الرجل الذى ناطوا به قتل اللغة العربية فى مصر وحكموه فى وزارة المعارف المصرية من عام ١٨٩١ إلى عام ١٩١٩ أن جماعة من تجار الأدب الزائف والثقافة المرجاء ، سيصدرون هذه المجلات التى يكتبونها بلغة طمطمانية ، لا تمت إلى العربية الصحيحة بصلة ويحشونها بمقالات لا صلة لها بالأدب ولا بالتاريخ

ولا بعلم من العلوم الحديثة ولا القديمة ، لبرأ ذمته من جناية قتل اللغة العربية فى مصر وتخلص من لعنة التاريخ الأبدية ، لأن هذه المجلات قد قضت على اللغة العربية وهبطت بها إلى أقصى دركات الحضيض فخدمت الاستعمار وقضت على الوحدة وعلى الأخلاق

وهذه الكتب التى تدرس فى المدارس التابعة لوزارة المعارف ما قول صاحب المعالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا فيما حوته من الأغلاط اللغوية والتاريخية ، فقد أحصيت فى أحدها ثلاثمائة غلطة لغوية وتاريخية تكاد تخرج الكتاب من حظيرة الكتب التى يشرف على انتخابها عدد من العلماء ، على رأسهم هيكل باشا المشهور بغيرته على لغة الضاد ومحاولته إحياءها بعد موتها

وإنى لا أتحدى أحداً إذا طلبت إلى معاليه الرجوع إلى سجلات مخزن كتب وزارة المعارف فى زمن إدارة « المستر دجلاس دنلوب » ورؤية أسماء الكتب التى أمر ببيعها بالقنطار فبيعت بأبخس من ثمن الورق قبل الطبع ؛ إنه إذا فعل فسيرى بين هذه المجلدات التى بيعت بالقناطير عدداً كبيراً من الكتب اللغوية القيمة مثل : القاموس ولسان العرب وصحاح الجوهرى ، ومن الكتب النحوية التى لا يوجد نظيرها من المؤلفات الحديثة فى مكاتب مصر ولا بين كتب التدريس

وهذا معناه أن يد هلاكوخان أو يد عضو محاكم التفتيش قد حاربت ثقافة مصر من سنة ١٨٩١ إلى سنة ١٩١٩ ، فإذا كان العرب يريدون الاحتفاظ بمجدهم ، فإن الواجب يحتم عليهم حفظ لغتهم ، وهذا لا يتم إلا بنبذ المجلات الموبوءة ، والاعتناء بتصحيح لغة كتب التدريس

كان صاحب الجلالة المغفور له على الأول ملك الحجاز السابق ووالد صاحب السمو الأمير عبد الإله الوصى على عرش العراق اليوم يقيم فى حى الكرادة على ضفة نهر دجلة فى مدينة دار السلام ، وكنت أيمم قصره فى كل يوم فأرفع إلى جلالته خلاصة الجرائد العربية والتركية وأحمل بعضها معى لإعادة قراءتها عند عودتى فى المساء . وفى أحد الأيام قرأ أحد أصدقائى جريدة هزلية تصدر فى مصر ودسها فى الجرائد التى تأبطتها ودخلت على الملك الوديع فوجدته منفرداً فى بهو الاستقبال .

وبعد حديث قصير أمرنى بقراءة مقال لى قد نشرته جريدة العراق فى ذلك اليوم فقرأته . وفى هذه الأثناء انتثرت الجرائد التى أحضرتها بسبب الهواء المتسرب فى النافذة المفتوحة وسقطت على الأرض ، وكنت قد وضعتها على مقعد بالقرب من جلالته ، فرأى الجريدة الهزلية وسألنى عن مصدرها وخطتها ، وأخذت فى قراءة أحد فصولها ، فأتممت قراءته وشرعت فى قراءة فصل آخر ، وتراءى لنا صاحب السمو الأمير عبد الإله فأومأ إلى جلالته بطرفه فأخفيت الجريدة وغيرنا مجرى الحديث . وعرف الأمير الفتى أنه قد فجأنا فى خلوتنا فسلم وودع ولم يزد على قوله لكاتب هذا المقال : جئت للسلام عليك وقد قرأت مقالتك اليوم فى جريدة العراق فاسمح لى بالانصراف لأنى ذاهب إلى المدرسة .

وبقيت مع جلالة والده فقال لى بعد انصراف ولده وهو يشيع سيارته بنظراته من نافذة القصر :

— لقد فطنت لما أشرت به إليك ، لأنى لا أقرأ ولا أريد أن يقرأ عبد الإله الجرائد والمجلات التى تنهش الأعراض ؛ وهذه هى المرة الأولى التى منيت فيها برؤية جريدة من هذا النوع

فقلت لجلالته : إن هذه الجريدة قد دست فى جرائدى ولم أرها إلا بعد شروعى فى القراءة ، ولو عثرت عليها قبل دخولى من باب القصر لحرقتها وذريت رمادها فى الهواء ، لأن هذا النوع من الجرائد لا فرق بينه وبين جراثيم الأمراض الوبائية .

ومضى جلالته فى حديثه فقال :

— يقول لك عبد الإله إنه قد قرأ مقالتك فى جريدة العراق وقد رمى بقوله عصفورين بحجر ، فقد أذنت له فى قراءة الجرائد التى تنشر مقالاتك لا غيرها ، لأنك لا تتعثر فى الأغلاط اللغوية ولا تدنس قلمك بالهجر من الألفاظ التى تجرح العواطف ولا تتلظ لمناظرك فى القول ، وهذا ما حدا بى إلى النصح لعبد الإله بقراءة ما تكتبه فى الصحف وما تختاره له من الكتب .

فقلت لجلالته : إن المتنبى حكيم العرب وشاعر الأجيال يقول يا صاحب الجلالة :

وكل يرى طرق الشجاعة والندى ولكن طبع النفس للنفس قائد

ويقول أرسطاطاليس إن الفضائل ليست طبيعية فينا ، وإلا عجزنا عن تغيير طبائعنا ؛ فالعادة لا تستطيع أن تغير ما هو فطرى ، مثل ذلك مثل الحجر الذى يهوى بطبيعته إلى أسفل فإنه لا يمكن أن يتعود الصعود ولو حاول به المرء ذلك ألف مرة ؛ وكذلك النار فطرتها الصعود بلهبها ولا يمكن أن تتجه إلى أسفل ؛

وليس فى الوجود جسم واحد يمكن أن يفقد خاصته التى تلقاها من الفطرة ليستبدل بها عادة غيرها

والأمير عبد الإله كريم الطرفين هاشمى الأبوين لم أره مرة مازحاً ولا عابثاً . ولقد تقدم إلىّ يوماً فى طلب كتاب قراءة ليتفكه به فى أوقات فراغه فبحثت فى خاطرى وتخيرت لسموه كتاب كليلة ودمنة وأحضرت له نسخة من الطبعة التى صححها الشيخ خليل اليازجى لخلوها من الأغلاط اللغوية . وبعد قراءة بعض فصولها قال لى : إنه يميل إلى مطالعة الكتب الأدبية واللغوية والتاريخية فأحضرت لسموه شرح ديوان أبى الطيب وفقه اللغة وسر العربية للثعالبى وحاولت أن أردفهما بكتاب أدب الكاتب لمؤلفه أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة

بيد أنى أردت تمحيص أدب الكاتب لأعرف هل هو من سقط المتاع ، أو من البضاعة التى تساوى ما سيبذله الأمير من وقته الثمين فرأيت صاحب أدب الكاتب يقول : (ومن ذلك القافلة يذهب الناس إلى أنها الرفقة فى السفر ذاهبة كانت أو راجعة ، وليس كذلك إنما القافلة الراجعة يقال قفلت فهى قافلة ، وقفل الجند من مبعثهم أى رجعوا ، ولا يقال لمن خرج إلى مكة من العراق قافلة حتى يصدروا)

والقاموس يقول : « والقافلة الرفقة القفال والمبتدئة فى السفر تفاؤلاً بالرجوع »

ويقول فى « باب ما لا ينصرف » وما كان منها على ثلاثة أحرف « يريد ما كان من الأسماء » وأوسطه ساكن فإن شئت صرفته وإن شئت لا تصرفه . قال الله عز وجل : «أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين » وقال تعالى : « اهبطوا مصراً » انتهى قول ابن قتيبة . وهذان المثلان يثبتان أن ابن قتيبة يجهل أسرار اللغة العربية ، فالقاموس يقول المصر الكورة ، والكورة هى المدينة ، فقوله فى الآية لبنى إسرائيل الخارجين من مصر فى طريقهم إلى بيت المقدس (أدخلوا مصراً) معناه أدخلوا إحدى المدن ؛ وقوله تعالى فى الآية (٩٩) من سورة يوسف عليه السلام « فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » يريد به مدينة مصر عاصمة وادى النيل واسمها هنا ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة ؛ أما فى الآية الأولى فإن المثلين قد زالتا فلا علمية ولا عجمة والاسم فى قوله تعالى : « اهبطوا مصراً » عربى نكرة ولكنه علم أعجمى فى سورة يوسف ؛ وعليه فإن ابن قتيبة قد أخطأ فى التمثيل ولو تمثل بلسم غير هذا الاسم مثل (هند) و (دعد) لأصاب لأن العلم الثلاثى الساكن الوسط يجوز فيه المنع والصرف إذا كان غير أعجمى ولا منقول ؛ أما مصر فى الآية الواردة فى سورة يوسف فإن فيها العجمة والعلمية

ويقول ابن قتيبة ويقال : (شتان) ما هما بنصب النون ، ولا يقال شتان ما بينهما ؛ والقاموس يقول : (وشتانَ بينهما بفتح النون وما هما وما بينهما وما عمرو وأخوه أى بعد ما بينهما) ويقول ابن قتيبة فى أدب الكاتب : « ورجل مفهوم من الطعام ولا يقال نهم » والقاموس يقول : (نهم ونهيم ومنهوم) ، وفى أدب الكاتب أغلاط لا أضيع الوقت بذكرها

ويسرنى أن نمو الأمير قد ذكر لى سبب رغبته عن قراءة كتاب كليلة ودمنة فقال : لقد برمت بما فيه من القصص المتشابكة والإطالة المملة على الرغم من جزالة ألفاظه وسلامة عباراته ورقة أسلوب كاتبه وبلاغة إنشائه الذى هو من نوع السهل الممتنع

وآن وقت الغداء فتغدينا وودعت جلالته وانصرفت

يوسف كمال هيتاته
عضو المجمع العلمى بوزارة المعارف
فى الآستانة سابقاً

لا تتكاسل بعد الآن!
أحدث الاكتشافات العلمية فى صحة الفم!
اليود فى عجينة للأسنان:
يودكاليدكلور
أطلب النشرة العلمية الخاصة من:
جلاتهورمين صندوق بوستة ٢١٠٥ مصر
(س . ت ٥٢٢٧)